الفصل الثانى

الاستعارة بين أسماء الذوات

الاستعارة بين أسماء الذوات

رأينا – فيما مضى –أن الشيخ عبد القاهر الجرجانى أجرى هذه الاستعارات بين أسماء الذوات، مثل استعارة الطلا، وهو ولد الظبى لولد الإنسان، وأجراها كذلك بين أسماء الأعضاء، مثل استعارة الشفة وهى موضوعة للإنسان للفرس، وترك الباب مفتوحا أمام استعارة غيرهما عندما قال: « .... وماشاكل ذلك من فروق »[1].

ولذلك وجدنا الزمخشرى قد وسع دائرة هذه الاستعارة، وأجراها بين أشياء لم يتطرق إليها الشيخ عبد القاهر صراحة، مثل استعارة المشى للزحف، واستعارة طلع النخلة لطلع شجرة الزقوم.

وقد عثرت فى كتاب (لسان العرب) على استعارات من هذا النوع، بعضها ورد ذكره عند الشيخ عبد القاهر، وبعضها لم يرد ذكره، ومنها ما هو من قبيل استعارة اسم ذات لذات أخرى، أو استعارة اسم عضو لعضو آخر، وغير ذلك وقد قست النظير على النظير، والمجهول على المعلوم، وأرجو أن أكون قد وفقت فى فهم الاستعارات التى لم يأت لها ذكر فى كتب البلاغة المشهورة من قبل.

فمن استعارة اسم ذات لذات أخرى، استعارة الأطلاء، وهى أولاد الظباء لفسلان[2] النخل، وهى استعارة بين حيوانات، وأشجار، والمستعار منه أولاد الظباء أعنى الأطلاء، والمستعار له، صغار النخل، جاء فى لسان العرب:

« ... واستعار بعض الرجاز الأطلاء لفسيل النخل فقال:

دُهْمًا كأن الليل فى زُهائها لا ترهبُ الذئبَ على أطْلائها[3]

يقول إن أولادها إنما هى فسيل، فهى لا ترهب الذئب لذلك؛ فإن الذئاب

---

(١) أسرار البلاغة: ٢١.

(٢) الفسيلة: الصغيرة من النخل، والجمع فسائل وفسيل، والفسلان: جمع الجمع. لسان العرب: ٥ / ٣٤١٤ (فسل).

(٣) زُهاؤها: شخوصها، وأطلاؤها: أولادها يعنى فسلانها.
ينظر لسان العرب: ٢ / ١٤٤٤ (دهم).

لا تأكل الفسيل»[1] واضح أن الراجز ينظر إلى هذه النخل وصغارها نظرة إعجاب ورضا، وغبطة وسرور؛ لحسن منظرها، ونضارة خضرتها، فأضفى عليها صفات الظباء فى حسنها ورقتها، وبهائها ورونقها، فاستعار الأطلاء لفسائلها[2] وكلماته شاهدة على ذلك؛ فقد وصفها بأنها دهم أى خضراء، وحديقة دهماء مدهامة أى خضراء تضرب إلى السواد، وفى التنزيل العزيز ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤] أى سوداوان من شدة الخضرة من الرى[3] فهى ولا ريب استعارة مفيدة لملاحظة مشابهة بين المستعار منه، والمستعار له، وليست مجرد نقل اسم مكان اسم آخر.

وكأن هذا الرجّاز يشير من طرف خفى إلى أنه يعيش فى أرض مَذْأَبَةٍ غير آمنة، ولا مطمئنة، تعدو الذئاب فيها على الناس، والحيوانات، فهو يغبط هذه النخيل على ما تتمتع به من أمن واطمئنان على نفسها وأولادها.

ومما هو بسبيل من ذلك استعارة الهَجْمَةِ وهى «القطعة الضخمة من الإبل، وقيل هى ما بين الثلاثين إلى المائة....»[4] - للكثير من النخيل فى عظيم نفعها وكثرة أحمالها، وهى كسابقتها طرفاها حيوانات، وأشجار، المستعار منه الهجمة من الإبل، والمستعار له، الكثير من النخل جاء فى لسان العرب:

«.. واستعار بعض الشعراء الهجمة للنخل محاجيا بذلك فقال:

إلى الله أشكو هجمة عربية ... أضرَّ بها مرُّ السنين الغوابر

فأضحت روايا تحمل الطين بعدما ... تكون ثمالَ المقترين المفاقر[5]

---

(١) لسان العرب: ٤/ ٢٧٠٠ (طلى).

(٢) حكى صاحب اللسان عن بعض اللغويين أن الطلا هو الصغير من كل شىء، وعلى ذلك يكون إطلاقه على الصغير من كل شىء حقيقة عندهم: ٤/ ٢٧٠٠ (طلى).

(٣) لسان العرب: ٢/ ١٤٤٤ (دهم).

(٤) المصدر نفسه: ٦/ ٢٦٢٤ (هجم).

(٥) الروايا - جمع راوية البعير. لسان العرب: ٣/ ١٧٨٥ (روى) والثمال - بكسر الثاء - الغياث. نفسه: ١/ ٥٠٦ (ثمل).

والمقترين: المضيق عليهم فى الرزق.

ينظر لسان العرب: ٥/ ٣٥٢٥ (قتر).

والمفاقر: وجوه الفقر لا واحد لها، وأغنى الله مفاقره أى وجوه فقره.

لسان العرب: ٥/ ٣٤٤٥ (فقر).

ويبدو أن هذا الشاعر كان لا يعرف عدد تلك الإبل والنخيل على وجه الدقة والتحديد يؤكد ذلك أن الهجمة عددها غير معين، وقد أورد فيه صاحب اللسان عدة أقوال[1].

ويظهر من كلمات الشاعر أنه يذكر فضل هذه النخيل فى سالف عهدها، وأنها كانت معطاء، تحمل الكثير من البسر والرطب، ولكن مر السنين أضر بها، وجعلها عديمة النفع، إما لأنها أصبحت لا تثمر لقدم سنها، أو، لأنها قلعت من أماكنها، وقطعت سوقها، ووضعت فى بعض الأماكن، أو فى سُقُف بعض البيوت تحمل الطين، فأضحت تشبه الإبل التى تحمل الطين بعد أن كانت تحمل ما طاب من الطعام والشراب، وغيرهما، وقد كانت هذه النخيل فى عهدها الغابر تغيث بثمارها الفقراء، والمحتاجين تطعمهم، وتسد خلتهم، ولسان حال ذلك الشاعر يقول ما قاله أمير الشعراء بعده بسنين عددا:

أهذا هو النَّخْلُ مَلْكُ الرياض ... أميرُ الحقول عروسُ الْعِزَبْ
طعامُ الفقير وحلوى الغنىّ ... وزادُ المسافر والمغتربْ
وأنتن فى البيد شاة الْمُعِيل ... جناها بجانب أخرى حَلَبْ[2]

وعلى ذلك تكون استعارة الهجمة من الإبل للكثير من النخل استعارة مفيدة؛ لأنها مبنية على التشبيه، وملاحظة الصفات المشتركة بين الإبل والنخيل.

ومن هذا القبيل استعارة اسم ولد الأتان[3] لابن الإنسان، فطرفاها حيوان وإنسان، الحيوان مستعار منه، والإنسان مستعار له، جاء فى لسان العرب «التولب ولد الأتان من الوحش».

... ويقال للأتان أم تولب، وقد يستعار للإنسان قال أوس بن حجر يصف صبيا:

---

(١) ينظر لسان العرب: ٦ / ٢٦٢٤ (هجم).

(٢) ديوان أحمد شوقى: ٤ / ٦٤ من قصيدة النخيل ما بين المنتزه وأبى قير.

(٣) الأتان: الحمارة والجمع آتُن، وأُتْنٍ، وأُتُنٌ، وفى حديث ابن عباس – رضى الله عنهما – جئت على حمار أتان، الحمار يقع على الذكر والأنثى، والأتان والحمارة الأنثى خاصة. لسان العرب: ١ / ٢١ (أتن).

وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نواشرها   تصمت بالماء تولبا جَدِعَا[1]

وإذا كانت أم هذا الطفل تلبس ثوبا خلقا مرقعا، وابنها سيء الغذاء، لا تجد أمه أمامها ما تسد به رمقه إلا الماء تسكنه به، فهما فى غاية المسكنة، والفقر المدقع، وقد استعار الشاعر التولب، وهو ولد الحمارة، لابن هذه المرأة، ليبرز مدى هزاله، وضعفه، وسوء حاله، كل ذلك يوحى بأنها استعارة مفيدة؛ لأنها تعتمد على التشبيه، وادعاء اتصافه بصفات التولب الذى ساء غذاؤه، ونضب رواؤه، وشحب لونه، وضعف عظمه، ومناسبة القصيدة التى منها هذا البيت ترشح تلك المعانى، وتساندها؛ فهو من قصيدة يرثى بها الشاعر فضالة بن كلدة، ومطلعها من المطالع الرائعة فقد بدأها بقوله:

أيتها النفس أجملى جزعا   إن الذى تحذرين قد وقعا
إن الذى جمع السماحة والنجـ   ـدة والحزم والقوى جمعا
الألمعى الذى يظن بك الظـ   ـن كأن قد رأى وقد سمعا

إلى أن قال:

ليبكك الشَّرْبُ والمدامة والْفِتْـ   ـيانُ طرا وطامع طمعا
وذات هدم..................   ....[2]

فهذه المرأة المسكينة تبكى هذا المرثى؛ لأنه كان ملجأ لها، وغوثا لأمثالها من الضعفاء والمحاويج، وما قلته حول هذا البيت يعتبر غيضا من فيض، وقليلا من كثير مما ذكره شيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجانى حول هذا البيت فقد قال:

« ... فأجرى التولب على ولد المرأة، وهو لولد الحمار فى الأصل، وذلك لأنه يصف حال ضر وبؤس، ويذكر امرأة بائسة فقيرة، والعادة فى مثل ذلك الصفة بأوصاف البهائم، ليكون أبلغ فى سوء الحالة، وشدة الاختلال، ومثله سواء قول الآخر:

وذكرت أهلى بالعرا   ء وحاجة الشعث التوالب

---

(١) لسان العرب: ١/ ٢٣٨ (تلب).
وقد ذكرت معانى كلماته فى موضع سابق أثناء تناول هذه الاستعارة عند «قدامة».
(٢) ديوان أوس بن حجر: ٥٣ - ٥٥ تحقيق وشرح د. محمد نجم، ط ثالثة دار صادر، بيروت ١٩٧٩م.

كأنه قال الشعث التى لو رأيتها حسبتها توالب، لما بها من الغبرة وبذاذة الهيئة»[1].

وقد أولى العلماء ضبط كلمة «جدعا» اهتمامهم، وعنايتهم، فقد قال الشيخ عبد القاهر عقب كلامه السالف ذكره «والجدع فى البيت بالدال غير معجمة حكى شيخنا رحمه الله قال: أنشد المفضل «تصمت بالماء تولبا جذعا» بالذال المعجمة فأنكره الأصمعى وقال: إنما هو (تصمت بالماء تولبا جدعا) وهو السيىء الغذاء، قال فجعل المفضل يصيح، فقال الأصمعى: لو نفخت فى الشبور، ما نفعك تكلم بكلام الحكل[2] وأصب»[3].

وهذا يدل على مدى حرص هؤلاء العلماء على التحفى باللغة العربية، والمحافظة عليها وعلى ألفاظها خالية من التصحيف والتحريف؛ لأنها وعاء القرآن الكريم وحاملة سنة رسول الله ﷺ.

ومن استعارة ذات لذات استعارة الحفان، وهو ولد النعام لصغار الإبل، وتلك الاستعارة طرفاها طائر وحيوان، المستعار منه الطائر، والمستعار له صغار الإبل جاء فى لسان العرب:

---

(١) أسرار البلاغة: ٢٧.

(٢) فى لسان العرب: الحُكْلُ بالضم العُجْم من الطيور والبهائم، وكلام الحكل كلام لا يفهم... ٢/ ٩٥١ (حكل).

(٣) أسرار البلاغة: ٢٧ وقد أورد ابن جنى قصة الخلاف بين المفضل والأصمعى حول ضبط كلمة (جدعا) برواية لا تخرجها عن مضمونها الذى ذكره الشيخ عبد القاهر فقال: «وقال الرياشى حدثنى الأصمعى قال ناظرنى المفضل عند عيسى بن جعفر فأنشد بيت أوس:

وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولبا جذعا

فقلت هذا تصحيف لا يوصف التولب بالإجذاع، وإنما هو (جدعا) وإنما هو السيىء الغذاء قال فجعل المفضل يشغب عليه فقلت تكلم كلام النمل وأصب، لو نفخت فى شبور يهودى ما نفعك شيئًا».

الخصائص، لابن جنى: ٣/ ٣٠٦ تحقيق محمد على النجار دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

وحكى صاحب لسان العرب هذه القصة التى وقعت بين المفضل والأصمعى وفيها زيادة على ما تقدم أنهما تحاكما لغلام من بنى أسد حافظ للشعر «فصدّق الأصمعى وصوّب قوله فقال له المفضل وما الجدع؟ قال السىء الغذاء»، ١/ ٥٦٨ (جدع).

« ... والْحَفَّان ولد النعام، وأنشد لأسامة الهذلي:

وإلا النَّعـــــامَ وحَفَّانَـــــهُ وطُغْيا مـــع الَّلهِقِ الناشِطِ[1]

.... قال ابن برى واستعارة أبو النجم لصغار الإبل في قوله:

والحشو من حفّانها كالحنظل[2]

فشبهها لما رويت من الماء بالحنظل في بريقه ونضارته..»[3].

ولا ندرى إن كان أبو النجم يمدح صغار الإبل أم يذمها، وقد ترك الشيخ عبد القاهر هذا الشاهد دون أن يتلمس له وجها من المدح أو الذم حتى يمكن معرفة إفادة هذه الاستعارة من عدمها، بل أبقاه شاهدا على أن الاستعارة فيه لفظية غير مفيدة فقال:

« ... وقال آخر: والحشو من حفانها كالحنظل فأجرى الحفان على صغار الإبل، وهو موضوع لصغار النعام»[4] وكلمة (كالحنظل) التي شبه بها صغار الإبل في البريق والنضارة تشعر بمدح صغار الإبل، وعليه تكون الاستعارة مفيدة، لكن ذلك يعارضه أن الشيخ عبد القاهر أبقى هذه الاستعارة شاهدا على أنها استعارة غير مفيدة، وقد تأملت هذا الشاهد مليا، وبحثت في مظان وجود هذه المادة في لسان العرب لعلي أجد سرا في إبقائها لفظية عند الشيخ ضربة لازب، فلم أهتد إلى شيء، ولعله -والله أعلم- أبقاها كذلك، لأنه لا يتأتى فيها المدح؛ لأن صغار الإبل إذا شبهت بالنعام، كان مسخا لها؛ لأن النعام أقمأ منها جسما، وأصغر هيكلا، ولا يتأتى الذم أيضا؛ لأن تشبيهها بالحنظل في البريق والنضارة يتعارض معه.

---

(١) الطُّغيا: الصغير من بقر الوحش. وبعضهم يفتح الطاء.
لسان العرب: ٢/ ٩٣٢ (حفف).
والَّلهِق: الأبيض الشديد البياض.
نفسه: ٥/ ٤٠٨٧ (لهق).
والناشط الثور الوحشي الذي يخرج من بلد إلى بلد نفسه: ٦/ ٤٨٢٨ (نشط).
(٢) حشو الإبل وحاشيتها: صغارها، وكذلك حواشيها، واحدتها حاشية.
نفسه: ٢/ ٨٩١ (حشا).
والحنظل: الشجر المر.. واحدته حنظلة.
نفسه: ٢/ ١٠٢٥ (حنظ).
(٣) لسان العرب: ٢/ ٩٣٢ (حفف).
(٤) أسرار البلاغة: ٢١.

والمخرج من ذلك – فيما أحسب – وأرجو ألا أكون مخطئا – أن هذا الشاهد ليس فيه استعارة، وإنما هو من قبيل الحقيقة، فقد جاء فى لسان العرب:

«والحفّانُ فراخ النعام... وربما سموا صغار الإبل حفانا للذكر والأنثى جميعا، وأنشد ابن برى:

والحشو من حفانها كالحنظل(١)

وقوله أيضًا «... وقيل الحفان صغار النعام والإبل، والحفان من الإبل أيضًا ما دون الحقاق..»(٢).

ويكون الشيخ عبد القاهر قد ذكرها من الاستعارة تبعا لقول بعض اللغويين، دون أن يقلب النظر فيها على وجوهه المختلفة.

ومن استعارة ذات لذات استعارة اسم بيض الضبة لاسم بيض الطير فطرفا هذه الاستعارة بيض وبيض، المستعار منه بيض الضبة، والمستعار له بيض الطير جاء فى لسان العرب:

«المكْنُ والمكِنُ بيض الضبة والجرادة ونحوهما، قال أبو الهندى واسمه عبد المؤمن بن عبد القدوس:

ومكن الضباب طعام العُريب ولا تشتهيه نفوس العجم

... وقوله ﷺ أقروا الطير على مكناتها(٣) ومكناتها بالضم قيل يعنى بيضها على أنه مستعار لها من الضبة؛ لأن المكن ليس للطير... قال أبو عبيد سألت عدة من الأعراب عن مكناتها فقالوا لا نعرف للطير مكنات، وإنما هى وكنات، وإنما المكنات بيض الضباب، قال أبو عبيد وجائز فى كلام العرب أن يستعار مكن الضباب، فيجعل للطير تشبيها بذلك، كما قالوا مشافر الحبش، وإنما المشافر للإبل..»(٤) فالمكن

---

(١) لسان العرب: ٢/ ٩٣٤ (حفن).

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٩٣٢ (حفف).

والحقاق من الإبل جمع حِقّ وَحِقَّة، وهو الذى دخل فى السنة الرابعة، وعند ذلك يتمكن من ركوبه. نفسه ٢: ٩٤٣ (حقق).

(٣) ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٤/ ٣٥٠.

تحقيق طاهر الزاوى وآخر، المكتبة العلمية – بيروت.

(٤) لسان العرب: ٦/ ٤٢٤٩ (مكن).

مستعار من الضباب للطير، وظاهر الأمر ينبىء بأنها استعارة لفظية غير مفيدة، وضع فيها اسم بيض مكان آخر، ولكن واقع الأمر وحقيقته - كما يبدو - أنها استعارة مفيدة؛ لأن بيض الضباب شهيّ عند العرب كما يدل عليه قول شاعرهم الآنف الذكر، فهو أثير لديهم، مفضل عندهم على بيض الطير، ويؤكد ذلك ما جاء «في حديث أبي سعيد لقد كنا على عهد رسول الله ﷺ يهدى لأحدنا الضبة المكون أحب إليه من أن يهدى إليه دجاجة سمينة»(١).

واضح من قول الشاعر ثم هذا الحديث أن العرب تحب بيض الضباب، وتشتهيه، على حين تعافه نفوس العجم وتجتويه، وعلى ذلك تكون استعارة اسم بيض الضباب لبيض الطير استعارة مفيدة، لما فيها من إشعار بمدح بيض الضباب، وكلام أبي عبيد الذى قدمت ذكره صريح فى ذلك حيث جعل مكن الضباب مستعارا للطير عندهم على سبيل التشبيه، كما نظّره باستعارة مشافر الإبل لشفاه الحبش، فكلامه جلى فى أنها استعارة مفيدة.

وقد يجمل هنا أن نعرج على معنى قول الرسول ﷺ فى الحديث المذكور آنفا (أقروا الطير على مكناتها) وقد أورد صاحب لسان العرب فى معناه عدة أقوال أولاها بالقبول ما رواه الأزهرى عن يونس قال: «قال لنا الشافعى فى تفسير هذا الحديث قال كان الرجل فى الجاهلية إذا أراد الحاجة أتى الطير ساقطا أو فى وكره فنفّره، فإن أخذ ذات اليمين مضى لحاجته، وإن أخذ ذات الشمال، رجع، فنهى رسول الله ﷺ عن ذلك، قال الأزهرى والقول فى معنى الحديث ما قاله الشافعى وهو الصحيح»(٢).

فالحديث يأمر المسلمين ألا يتخلقوا بأخلاق الجاهلية، ويطلب منهم أن يقروا الطيور فى أماكنها، ويتركوها فى مواضعها، ولا يزجروها لتطير يمنة أو يسرة، فيتفاءلوا بها، أو يتشاءموا منها، لأنها تصدهم عن مصالحهم، وليس لها تأثير فى جلب نفع، أو دفع ضر.

* * *

(١) ينظر النهاية فى غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: ٤ / ٣٥١.
(٢) لسان العرب: ٦ / ٤٢٥٠ (مكن).